# شعرية المكان في وصف ابن خميس لتلمسان

**أ. شاهيناز بسمة بن زرقة**
**جامعة تلمسان**

يدرس " غاستون باشلار " المكان في الأفق الذي تفتحه الظاهراتية ( الفينومينولوجية ) باعتبارها فلسفة تركز على تجربة و عينا بالوجود و أشيائه ، و هو يبحث في تجليات المتخيل الشعري ، من خلال الصور التي يبدعها الشعراء كتعبيرات عن أعماق نفسية وتجارب حدسية يتقاطع فيه و عي القارئ مع وعي المبدع، ليعمق حضور الإنسان في الوجود ، و يكثف الاستجابات ... و ما الأحلام والتأملات الشاردة ، و التذكرات و الرؤى إلا تجسيدات لحياة الأعماق ، فهو يرى : " أن المكان الذي ينجذب نحو الخيال ، لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية وحسب ، فهو مكان قد عاش فيه بشر ، ليس بشكل موضوعي فقط ، بل بكل ما في الخيال من تحيز " [1]

فالمكان ليس معطى هندسيا موضوعيا فقط ، و لكنه تجربة يعيشها الإنسان بخياله وحدسه ، و ينقلها عبر اللغة و الصور ، و من هنا تأتي قيمة الشعر ، فتشكل الصورة البؤرة المركزية التي ينبني عليها النسق المكاني هذه الصورة التي على القارئ أن لا يعتبرها " كشيء أو بديلا عن شيء ، بل يقتنص حقيقة خصوصيتها " [2]

و تكمن أهمية طرح باشلار و منهجه الظاهراتي ، في أنه قادر على تناول الصورة الشعرية في كينونتها الخاصة منقطعة عن كينونة سابقة [3] فالمتخيل الشعري إذن ، يلغي الظاهرة المكانية من حيث كونها ظاهرة هندسية ، و ينقلها إلى أفق الظاهرة اللغوية الرمزية ، التي هي تجل للنشاط النفسي و الميتافيزيقي للإنسان ، و هذا الجانب اللاواعي من الذات هو الجانب المهم ، لأنه يحول و ينوع أشياء العالم ، و الواقعة الموضوعية عندما تمر عبر الصورة الشعرية تتوغل في المناطق البعيدة للكائن، حيث تتراكم التجارب والذكريات ، ومن هنا ، فالشعر هو كتابة بالجسد و الروح ، و توغل في الأقاصي .

المكان عند باشلار ، لا يصبح منذ ذلك مجرد تضاريس ، إنه يدخل في مصهر المخيلة، و نبضات الكائن الإنساني ، من خلال اللغة التي تذوب الواقع في الرمز ، فباشلار يرى أن الشعراء هم الذين يملكون إحساسا خاصا بأشياء الوجود ، لأن فعالية الخيال عندهم حيوية بشكل خارق .

إن تصورات باشلار هذه ، فتحت المجال واسعا ، لمن جاءوا بعده ، ليطوروا طروحاته ، و يتعمقوا فيها ، و لو لا عمله الهام " جماليات المكان " ، لما استطاع جلبار دوران أن يكتب كتابه الهام، " البنيات الانثروبولوجية للمتخيل " الذي أشاد فيه كثيرا بباشلار .

و تصوراتهم النظرية تقول في مجملها ، إن مفهوم المتخيل هو البؤرة التي يتبلور داخلها مفهوم المكان بدلالاته المختلفة .

و التجربة الشعرية ( الأدبية ) تجعل المكان حالة خاصة ، فردانية ، تخضع لخصوصية و حميمية ذات ، لها ملامحها و طباعها و ثقافتها الخاصة ، كما لها منظومة قيم و مفاهيم تنتمي إليها ، و تقاليد أدبية و إبداعية تلتزم بها ، و من هنا،

فالمكان في المتخيل الشعري يتشكل داخل حساسية كل مبدع ، إذ يكون لسيرته الشخصية ، و رؤيته للعالم ، و تجربته الوجودية الدور الحاسم في علاقته مع المكان .

و هذه التصورات التي حاولنا أن نقف عليها في تحديد المكان و بلورة متخيل شعري ، ستكون سندنا النظري في فهم تجربة النوسطالجيا و الحنين في علاقة ابن خميس بمدينته تلمسان .

نقارب علاقة " ابن خميس " بمدينته " تلمسان " ضمن حميمية يحول فيها المتخيل الشعري المكان من مجرد فضاء جغرافي إلى تجربة جمالية متوهجة تذكيها النوسطالجيا و الحنين ،

و لأن المكان و الإنسان بعدان من أبعاد الزمان فقط ، فإننا لا نراهما إلا بوصفهما موضوعا للتغير ، فهما لا يتجليان إلا في لحظة التغير أو في عملية التغير .. [4]

فابن خميس ، وهو يعيش فترات الغياب عن تلمسان ، كان جسده ينأى عن أمكنته الأليفة ، ولكن وعيه ، كان دائم الاستحضار لها ، بكل التفاصيل ، فيصر على تسمية المواضع و الأشخاص ، و " تسمية الأماكن ليست من قبيل ما يسمى بولع الشاعر بالتفاصيل أو التزامه بما يطلق عليه اسم الواقعية ، وليست تطويلا بلا فائدة و ضربا من العي كما قال الباقلاني ، و النقد الأدبي لا يعنيه ، إن كانت تلك الأماكن قد وجدت في الواقع أم لم توجد ، لأن الشاعر يسبغ عليها دلالات جديدة، فيكون اختيار اسم بعينه أو تحديد مكان أمرا ذا دلالة " [5]

لهذا كثيرا ما نجد شاعرنا ، و هو في موقف الحنين ، يميل إلى إيراد أسماء الأماكن و المواضع و الإلحاح عليها ، ووصفها وصفا دقيقا ، إذ هي المعالم التي تثبت علاقته مع فضاء ما ، و هي ما يبقى له بعد أن يأخذ الشوق منه كل مأخذ ،

يقول :

تلمسان جادتك السحاب الروائح وأرسلت بواديك الرياح اللواقح

و سح على ساحات باب جيادها ملث يصافي تربها و يصافح

يطير فؤادي كلما لاح لامع و ينهل دمعي كلما ناح صادح

.....

كتمت هواها ثم برح بي الأسى وكيف أطيق الكتم و الدمع فاضح

لساقية الرومي عندي مزية وإن رغمت تلك الرواسي الرواشح

فكم لي عليها من غدو وروحة تساعدني فيها المنى و المنائح

فطرف عل تلك البساتين سارح و طرف إلى تلك الميادين جامح

على قرية العباد مني تحية كما فاح من مسك اللطيمة فائح

و جاد ثرى تاج المعارف ديمة تغص بها تلك الربا و الأباطح

إليك شعيب بن الحسين قلوبنا نوازع لكن الجسوم نوازح

سعيت فما قصرت عن نيل غاية فسعيك مشكور و تجرك رابح

نسيت و ما أنسى الوريط ووقفة أنافح فيها روضة و أفاوح

مطلا على ذاك الغدير وقد بدت لإنسان عيني من صفاه صفائح

أماؤك أم دمعي عشية صدقت علية فينا ما يقول المكاشح[6]

تلمسان /المكان ، هنا ليس معطى ثابتا ، و ليس فضاء متجانسا ، لكنه منصهر في الحالات النفسية للشاعر ، الذي يلتقط أشياء المكان في حركتها ، يحاول أن يحركها هو ، قبل أن تتحرك بقوة التغير ، هكذا يعارض الزمن الأفقي الحدثي بزمنه العمودي النفسي ، فشاعرنا ، هنا عندما يحن إلى المكان / تلمسان ، نجده أيضا يحن إلى عنفوان عمره ، و غضاضة شبابه ، فهو عبر اللغة ينقذ المكان والشباب كلحظتين أو كومضتين سريعتين في حالات التغيّر، مثلما تحفظ لنا الصور الفوتوغرافية ذاكرة الأماكن والوجوه، في لحظات ثابتة، وتنقذها من الاندثار :

تلمسان لو أنّ الزمان بها سيخو مُنَى النَّفْسِ لأَدَارُ السَّلاَمِ وَلاَ الكَرْخُ
وداري بها الأولى التي حيل دونها مَثَارُ الأسى لو أمكن الحنق اللّبحُ
وعهدي بها والعمر في عنفوانه وماء شبابي لا أجين ولا مطخ
قرارة تهيامٍ، ومغنى صبابة ومعهد أنس لا يلذ به لطخ

إذ الدّهر مثنيّ العنان منهنه ولا ردع يثني من عناني ولا ردخ
معاهد أنس عطلت فكأنها ظواهر ألفاظ تعمّدها النّسخ
أ أنسى وقوفي لاهيا في عراصها ولا شاغل إلاّ التودّع والسبخُ
وإلا اختيالي ماشيا في سماطها رخيًا كما يمشي بطرنه الرّخُ
وإلاّ فعدوي مثل ما ينفز الطلا وليدًا وحجلي مثل ما ينهض الفرخ
كأني بها أردشير بن بابك ولا ملك لي إلاّ الشيبة والشّرخ
وإخوان صدق من لداتي كأنهم جآذر رمل لا عجاف و لا بزخُ

*مضوا ومضى ذاك الزمان و أنسه ومرّ الصّبَا والمال والأهل والبذخُ*[7]

يغلب على استحضار ابن خميس لتلمسان، غرقه في حالة من الوجد والكلف، وليس هذا غريبا على شاعر متصوّف مثله، فيحضر المكان مرّة أخرى، لا كموضوع للحنين، ولكن كموضوع للحب والعشق " فالحب إرادة اتصال بمحبوب، لا لشخصه، أو لوجوده في عينه، وإنما لدوام الاتصال واستمراره، والدوام والاستمرار معدومان، أي أنهما يخلقان باستمرار ولا تتناهى مدّتهما ... " [8]

يقول :

سَلِ الرّيَح إنْ لم تُسعدِ السُّفْنَ أنْوَاءُ فَعِنْدَ صباها من تلمسان أنباءُ

*وفي خفقان البرق منها إشارة إليك بما تنمي إليها وإيماءُ*

تمرّ اللّيالي ليلة بعد ليلة و للأذن إصغاء و للعين إكلاءُ

*وإني لأصبو للصّبا كلّما سَرَت وللنجم مهما كان للنجم إصْبَاءُ*

وأُهْدِي إليها كلَّ يومٍ تحيّةً وفي ردّ إهداء التحية إهداءُ
وأستجْلِبُ النوم الغرَار ومضجعي قتادُ كما شاءت نواها و سُلاّء
لعلّ خيالاً من لدُنها يمرّ بي ففي مرّه بي من جوى الشوق إبراء

وإني لمشتاق إليها و منبيء ببعض اشتياقي لو تمكن إنبَاءُ
وكم قائل تفنى غرامًا بحبّها وقد أخلقت منها ملاء وأملاءُ[9]

في هذه التصورات التي قاربناها ، نستنتج أن مفهوم المتخيل هو البؤرة التي يتبلور داخلها مفهوم المكان بدلالاته المختلفة، وهي تصورات تستمد مرجعياتها من الفلسفة والانثروبولوجيا وعلم النفس والدّراسات النقدية ، تحاول أن تشكل نسقا مفهوميا يحاصر إشكالات المكان في الحقول المختلفة وضمن نشاطات الإنسان الخلاقة .

**الهوامش :**

(1) غاستون باشلار – جماليات المكان – ترجمة غالب هلسا – المؤسسة الجامعية للنشر – بيروت – لبنان – ط2 – 1984 – ص31 .
(2) المرجع نفسه – ص19 .
(3) غاستون باشلار – شاعرية أحلام اليقظة – ترجمة جورج أسعد – المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر – بيروت – لبنان – ط1 – 1991 – ص07 .
(4) كمال أبو ديب – الرؤى المقنعة : نحو منهج بنيوي لدراسة الشعر الجاهلي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – مصر –ط1- 1986 – ص613 .
(5) ريتاعوض – بنية القصيدة الجاهلية : الصورة الشعرية لدى امرئ القيس – دار الأداب بيروت – لبنان – ط1 – 1992 – ص189 .
(6) المقري التلمساني – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ج 8 – تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي – دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع – ط1 – 1998 – ص312 - 313 .
(7) نفسه – ج6 – ص306 .
(8) أدونيس – الصوفية و السوريالية – دار الساقي – بيروت – لبنان – ط1 – 1992 ط1 – 1992 – ص96 .
(9) المقري التلمساني – نفح الطيب – ج6 – ص310 .